مجاز القرآن

(87) القمر يدا ، ولا الجبل وجها ، ولا الغصن عينا ، ولا البان فما ، مراعاة المناسبة ـ إذن ـ ووضوح القرينة ، مانعان من الخلط المرتجل ، وضابطان من المجاز المشوه . لهذا كثر استعمال المجاز في لغة العرب شعرا ونثرا وصناعة من أجل توظيفه في شؤون الحياة الاجتماعية من جهة ، ومن أجل إضافة مخزون تراثي متطور الى لغتهم المتطورة من جهة أخرى فعمدوا الى المعاني الرائعة فنظموها في معلقاتهم قبل الإسلام ، ووقفوا عند الأغراض القيمة فصبوها بخطابتهم في الأسواق الأدبية الشهيرة ، فكان للمجاز أثره في الإبداع ، وللانتقال به الى المعاني الجديدة بادرته في التجديد اللغوي والبلاغي في فن القول ـ حتى عاد المجاز بحق معلما بارزا في تراثهم ، بل ظلا شاخصا في حياتهم الأدبية ، فهو عندهم معني بالثروة الاحتياطية للمعاني ، والثورة الاحترازية للألفاظ . فالمجاز على هذا بخصائثه الفنية ثروة لغوية ، وثورة فنية ، هذه الثروة وتلك الثورة فيهما إشاعة روح اليسر والمرونة والسماح لتجاوز حدود الحقيقة اللغوية الى ما يجاورها ويقاربها ، أو ما يضاف اليها إمعانا في الابتكار ، وصيانة للتراث من التدهور والضياع . ولقد كانت النقلة في خصائص المجاز الفنية ، نقلة حضارية وإنسانية الى مناخ أوسع شمولا ، وأبلغ تعبيرا ، وأوجز لفظا ، والألفاظ هي هي دلالتها الأولية . هذه الحقائق متوافرة السمات في كلام العرب منذ عهد مبكر ، ومصنفات الأعلام في المعلقات والأمالي والمنتخبات والحماسة غنية بأصول هذا الفن وبشائره الأولى في عصر ما قبل الإسلام وصدر الإسلام والعصر الأموي في الصناعتين . فإذا وقفنا عند هذا المعلم في القرآن العظيم وجدناه من خلاله : يشيع الحياة في الجماد ، والبهجة في الأحياء ، والحسن إلى الكائنات ، ويحدب أيضاً على سلامة الألفاظ في المؤدى ، وتهذيب العبارة في الخطاب ، وتنزيه الباري عن الأنداد ، وصيانة ذاته عن الجوارح ، وعلوه عن الحركة المجيء والانتقال والتشبيه . وهنا يقترن الغرض الفني بالغرض الديني ، وذلك من خصائص التعبير المجازي في القرآن ، فغذا استدرجه تذوقاً نطقياً ، أو تجاوباً سمعياً ، علمت